

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٧)

ومكذا يكون العذاب في الدنيا وفي الآخرة ، ويلقون الخزي يوم القيامة . والخزي هو الهوان والمذلة ، وهو أقوى من الضرب والإيذاء ؛ ولا يتجلد أمامه أحد ؛ فالخزي تشعيرة تفتش البدن ؛ فلا يفلت منها من تصيبه .

وإن كان الإنسان قادراً على أن يكتم الإيلام ؛ فالخزي معنى نفسي ، والمعاني النفسية تنضج على البشرية ؛ ولا يقدر أحد أن يكتم أثرها ؛ لأنه يقتل خميرة الاستكبار التي عاش بها ذلك الذي بيئت ومكر .

ويوضح الحق سبحانه هذا المعنى في قوله عن القرية التي كان يأتيها الرزق من عند الله ثم كفرت بآنعم الله ؛ فيقول :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ^(١) كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ^(٢) مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَعْتَبُونَ ﴾ (١١٢)

[النحل]

(١) أخزله : أهانه وفضحه . [القاموس القويم ١/١٩٢] . ١ . يخزيهم : أي يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم ، قاله القرطبي في تفسيره (٢٨٢٢/٥) .

(٢) تضائون : تخالفون وتعادون وتحاربون . [لسان العرب - مادة : شقق] .

(٣) المقصود بالقرية هنا مكة على أرجح الأقوال التي نقلها ابن كثير في تفسيره (٥٨٩/٢) والقرطبي (٢٩٢١/٥) وساق القرطبي قولاً عاماً أنها أي قرية كانت على هذه الصفة .

(٤) رَغَدَ العيش : اتسع وطاب . وقال تعالى : ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا .. ﴾ (٣٦) [البقرة]

أي : اكلاً طيباً مَوْسَعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

أى : كان الجسد كله قد سار مُمتلكاً لحاسة التذوق ، وكان الجوع قد أصبح لباساً ؛ يعانى منه صاحبه ؛ فيجوع بقفاه ، ويجوع بوجهه ، ويجوع بذراعه ورجله وخطواته ، وبكل ما فيه .

وساعة يحدث هذا الخزي فكلُّ خلايا الاستكبار تنتهى ، خصوصاً أمام مَنْ كان يدعى عليهم الإنسان أن عظمته وتجبره وغروره باقٍ ، وله ما يستد .

ويتابع سبحانه متحدياً :

﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ (٢٧) [النحل]

أى : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم ؛ فجعلتم من أنفسكم شُقَّةً ، وجعلتم من المؤمنين شُقَّةً أخرى ، وكلية ﴿ تُشَاقُّونَ ﴾ مأخوذة من « الشق » ويقال : « شقَّ الجدار أو شقَّ الخشب » والمقصود هنا أن جعلتم المؤمنين ، ومَنْ مع الرسول فى شُقَّةٍ تُعادونها ، وأخذتم جانب الباطل ، وتركتم جانب الحق .

ومنا يقول مَنْ آتاهم الله العلم :

﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٨)

[النحل]

وكان هذا الأمر سيصير مشهداً بمحضر الحق سبحانه بين مَنْ مَكروا برسول الله ﷺ ، وسيحضره الذين آتاهم الله العلم .

والعلم - كما نعلم - يأتى من الله مباشرة ؛ ثم يُنقل إلى الملائكة ؛ ثم يُنقل من الملائكة إلى الرُّسل ، ثم يُنقل من الرُّسل إلى الأمم التى كُلِّفَ الحق سبحانه رسالته أن يُبلِّغهم منهجه .

وَكَمَا شَهِدَتْ الدُّنْيَا سَقُوطَ الْمَظَاهِجِ الَّتِي اتَّبَعُوهَا مِنْ أَهْوَاتِهِمْ ،
وَسَقُوطَ مَنْ عَبَدُوهُمْ مِنْ نَوْنِ اللَّهِ سَيَشْهَدُ الْيَوْمَ الْآخِرَ الْخَزْيَ وَالسُّوءَ
وَهُوَ يَحِيطُ بِهِمْ ، وَقَدْ يَكُونُ الْخَزْيُ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ ، وَيَحْصِي
اللَّهُ مَنْ آمَنُوا بِهِ بِالْأَمْتَيْنِ .

وَنَعْلَمُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ قَالَ : « أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ، اللَّهُمَّ
فَاشْهَد » ^(١) .

وَكَمَا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ أُمَّتَهُ وَاسْتَجَابَتْ لَهُ : فَقَدْ طَلَبَ مِنْهُمْ أَيْضًا أَنْ
يَكُونُوا امْتِدَادًا لِرِسَالَتِهِ ، وَأَنْ يُبَلِّغُوهَا لِلنَّاسِ . ذَلِكَ أَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ
قَدْ مَنَعَ الرِّسَالَاتِ مِنْ بَعْدِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَصَارَ
مِنْ مَسْئُولِيَةِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَنْ تُبَلِّغَ كُلُّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ رِسَالَةُ
الرَّسُولِ ﷺ .

وَقَدْ قَالَ ﷺ : « نَضَرُ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها ، وَأَدَّاهَا إِلَى
مَنْ لَمْ يَسْمَعْها ، قَرِيبٌ مُبَلِّغٌ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » ^(٢) .
وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ هُوَ الْقَائِلُ ^(٣) :

- (١) وَرَدَ هَذَا الْقَوْلُ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مِنْهَا حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي
صَحِيحِهِ (٢٧٨) قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَدَّ ظَهْرَهُ إِلَى قَبَةِ أَدَمَ ، فَقَالَ : أَلَا
لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ . اللَّهُمَّ عِلِّمْ بَلَغْتَ ؟ اللَّهُمَّ اشْهَد .
- (٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٤٢٧/١) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وَابْنُ مَاجَةَ
فِي سُنَنِهِ (٢٢٢) وَالْحَمِيدِيُّ (٤٧/١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ .
- (٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَقْرَأَ عَلَىَّ . فَقُلْتُ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَقْرَأَ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَتَزَلُّ . قَالَ : نَعَمْ ، إِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْ غَيْرِي . فَقَرَأْتُ
سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى آتَيْتُ إِلَى هَذِهِ آيَةِ : ﴿ فَكُفُّوا إِنْ جِئْتُمْ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى
ثَلَاثَةِ شُهَدَاءَ ﴾ [النساء] فَقَالَ : « حَسْبُكَ الْآنَ » . فَإِذَا عَيْنَاءُ قَتْرِفَانَ . أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ
فِي صَحِيحِهِ (٥٠٥٠) . وَكُنَّا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٨٠٠) كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ وَلَفْظُهُ
« رَفَعْتُ رَأْسِي لَوْ خَرَزْتَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي قَرَفَعْتَ رَأْسِي فَرَأَيْتَ دُمُوعَهُ ﷺ تَصِيلُ » .

سورة البقرة

YAYO

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤١) يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَصْحَابُ الرُّسُولِ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ .. (٤٢) ﴿[الأنعام]

أَيُّ يَتَمَنُّونَ أَنْ يَصِيرُوا ثُرَايَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي مَوْعِ آخِرِ : ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ ثُرَايَا ﴾ (١٦)

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِيْ أَنْفُسِهِمْ﴾ قَالَ قُوا السَّلَامَ
مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ سَوِيٍّ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَرَوَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ خَالِفِينَ ﴾ .. (٢٨) ﴿ [النمل]

اي : تتوفاهم في حالة كونهم ظالمين لانفسهم ، وفي آية أخرى قال الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٩٩٨)

ومعلوم أن الإنسان قد يظلم غيره لِحَتِّ نفسه وإصالحها .. فكيف يظلم هو نفسه : وهذا يسمونه الظلم الأجمق حين تظلم نفسك التي بين جنبيك .. ولكن كيف ذلك ؟

(١) أي: الاستسلام. أي: أقروا لله بالرومية وانقادوا عند الموت. [تفسير القرطبي

نعرف أن العدو إذا كان من الخارج فسهل التصدي له ، بخلاف إذا جاءك من نفسك التي بين جنبيك ، فهذا عدو خطير صعب التصدي له ، والتخلص منه .

وهنا نطرح سؤالاً : ما الظلم ؟ الظلم أن تمنع صاحب حق حقه ، إذن : ماذا كان لنفسك عليك حتى يقال : إنك ظلمتها بمنعها حقها ؟
نقول : حين تجوع ، ألا تاكل ؟ وحين تعطش ألا تشرب ؟ وحين تُرهق من العمل ألا تنام ؟

إذن : أنت تعطى نفسك مطلوباتها التي تُريحها وتسارع إليها ، وكذلك إذا نمت وحاولوا إيقاظك للعمل فلم تستيقظ ، أو حاولوا إيقاظك للصلاة فتكاسلت ، وفي النهاية كانت النتيجة فشلاً في العمل أو خسارة في التجارة الخ .

إذن : هذه خسارة مُجمعة ، والخاسر هو النفس ، وبهذا فقد ظلم الإنسان نفسه بما فاتها من منافع في الدنيا ، ونس على ذلك أمور الآخرة .

وانظر هنا إلى جزئيات الدنيا حينما تكتمل لك ، هل هي نهاية كل شيء ، أم بنهايتها يبتدىء شيء ؟ بنهايتها يبتدىء شيء ، ونسأل : الشيء الذي سوف يبدأ ، هل هو صورة مكرورة لما انتهى في الدنيا ؟

ليس كذلك ، لأن المنتهى في الدنيا مُنقطع ، وقد أخذت حظي منه على قدر قدراتي ، وقد رأيي لها إمكانات محدودة .. أما الذي سيبداً - أي في الآخرة - ليس بمُنته بل خالد لا انقطاع له ، وما فيه من

سُورَةُ الْجِنِّ

٧٨٧٧

نعيم يأتي على قدر إمكانات المنعم وبك سبحانه وتعالى .

إذن : أنت حينما تُعطي نفسك متعة في الدنيا الزائلة المنقطعة ،
تُقوّت عليها المتعة الباقية في الآخرة .. وهذا مُنتهى الظلم للنفس .

نعود إلى قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

أثبتت هذه الآية التوقي للملائكة .. والتوقي حقيقة لله تعالى ، كما
جاء في قوله :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ .. ﴾ (٤٦)

[الزمر]

لكن لما كان الملائكة مأمورين ، فكان الله تعالى هو الذي يتوقى
الأنفس رغم أنه سبحانه وتعالى قال :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ .. ﴾ (٤٧)

[الزمر]

وقال :

﴿ قُلْ يَعْرِفُكُمْ مُلْكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ .. ﴾ (٦١)

[السجدة]

وقال :

﴿ تَرْفَعُهُ رُسُلُنَا .. ﴾ (٦١)

[الأنعام]

إذن : جاء الحدث من الله تعالى مرة ، ومن رئيس الملائكة
عزرائيل مرة ، ومن مُساعديه من الملائكة مرة أخرى ، إذن : الأمر
إما للمزاولة مباشرة ، وإما للواسطة ، وإما للأصل الأمر .

وقوله تعالى :

﴿ تَرْفَعُهُمْ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

معنى التوفى من وفاء حقه أى : وفاء أجله ، ولم ينقص منه شيئاً ، كما تقول للرجل وَفَيْتَكَ نَيْتَكَ .. أى : أخذت ما لك عندي .

﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

نلاحظ أنها جاءت بصيغة الجمع ، و ﴿ ظَالِمِي ﴾ يعنى ظالمين و ﴿ أَنْفُسِهِمْ ﴾ جمع ، وحين يُقَابَلُ الجمع بالجمع تقتضى القسمة أحاداً أى : أن كلا منهم يظلم نفسه ،

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

أى : خضعوا واستسلموا ولم يَعُدْ ينفعهم تكبرهم وعجرفتهم فى الدنيا .. ذهب عنهم كل هذا بذهاب الدنيا التى راحت من بين أيديهم .

وما داموا اتقوا السلم الآن ، إذن : فقد كانوا فى حرب قبل ذلك كانوا فى حرب مع أنفسهم وهم أصحاب الشقاق فى قوله تعالى :

﴿ تَشَاوَرُونَ .. ﴾ (٢٧)

[النحل]

أى : تجعلون هذا فى شق ، وهذا فى شق ، وكان الآية تقول : لقد رفعوا الراية البيضاء وقالوا : لا جِلْدَ^(١) لنا على الحرب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

هذا كقوله تعالى فى آية أخرى :

(١) الجلد : القوة والشدة . والجلد : الصلاة والجلالة . [لسان العرب - مادة : جلد] .

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

٧٨٧٩

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ ^(١) إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٢٢)

[الانعام]

والواقع أنهم بعد أن أقوا السلم ورفعوا الراية البيضاء واستسلموا . أخذهم موقف العذاب فقالوا محاولين الدفاع من أنفسهم :

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ .. ﴾ (٢٨) [النحل]

وتمجب من كذب هؤلاء على الله في مثل هذا الموقف ، على من تكذبون الآن !

فيرد عليهم الحق سبحانه :

﴿ بَلَى .. ﴾ (٢٨) [النحل]

وهي أداة نفى للنفي السابق عليها ، ومعلوم أن نفي النفي إثبات ، ف ﴿ بلى ﴾ تنفى :

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ (٢٨) [النحل]

إذن : معناها .. لا .. بل عملتم السوء . ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٨) [النحل]

ومن رحمة الله تعالى أنه لم يكتفِ بالعلم فقط ، بل دون ذلك عليهم وسجله في كتاب سيعرض عليهم يوم القيامة ، كما قال تعالى :

(١) قال ابن عباس معنيين في تأويل كلمة (فتنتهم) : الأول : معذرتهم . الثاني : حجتهم . نقلهما السيوطي في الدر المنثور (٢٥٨/٢) .

[الأنبياء]

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧)

وقال :

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتُهُ طَائِفَةٌ^(١) فِي عَتَقِهِ وَنُحْرُوجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (٧٣) **اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَمِيًّا** (١٤) [الإسراء]

ويحلو للبعض أن ينكر إمكانية تسجيل الأعمال وكتابتها .. ونقول لهؤلاء : تعالوا إلى ما توصل إليه العقل البشري الآن من تسجيل الصور والأصوات والبصمات وغيرها .. وهذا كله يُسهّل علينا هذه المسألة عندما نرقى إمكانات العقل البشري إلى الإمكانيات الإلهية التي لا حدود لها .

فلا وجه - إذن - لأنْ نفكر قدرة الملائكة ، وربي وعتيده^(٢) في تسجيل الأعمال في كتاب يحفظ أعماله ويُحصي عليه كل كبيرة وصغيرة .

ثم يقول تعالى :

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليَنسَ
مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٢٩)

سبق أن قلنا في شرح قوله تعالى في وصف جهنم :

(١) طائفة : جملة وما قُدِّرَ عليه من خير وشر . وهو ملازمه أينما كان . وقال الحسن : أي شقارته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أي : صار له عند القسمة في الأزل [تفسير القرطبي ٢٩٥٧/٥] .
(٢) يقول تعالى في سورة ق : ﴿إِذْ يَطْلُبُ الْمُظْلِمُونَ عَن النَّبِيِّ رَعِي الشَّمَالَ قَمْعًا﴾ (٩٧) ما يُلَظُّ من قول (إلا لديه ريب عتيد) (١٥) [ق] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

٧٨٨٩

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (٤٤) [الحجر]

أى : أن لكل جماعة من أهل المعصية باباً معلوماً .. فبابٌ لأهل الربا .. وبابٌ لأهل الرشوة .. وبابٌ لأهل النفاق وهكذا .. ولك أن تتصور ما يلاقيه مَنْ يجمع بين هذه المعاصي !! إنه يدخل هذا الباب ثم يخرج منه ليدخل باباً آخر .. حقاً ما اتعس هؤلاء !

وهنا يقول تعالى :

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ..﴾ (٢٩) [النحل]

فجاءت أيضاً بصورة الجمع . إذن : كل واحد منكم يدخل من بابه الذى خُصَّص له .

ثم يقول سبحانه :

﴿الْبَئِيسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٢٩) [النحل]

والمثوى هو مكان الإقامة ، وقال تعالى فى موضع آخر :

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٢٣) [النحل]

فتكبر واستكبر وكل ما جاء على وزن (تفعل) يدل على أن كبرهم هذا غير ذاتي : لأن الذى يتكبر حقاً يتكبر بما فيه ذاتياً لا يسلبه من أحد ، إنما مَنْ يتكبر بشئ لا يملكه فتكبره غير حقيقى . وسرعان ما يزول ويتصاغر هؤلاء بما تكبروا به فى الدنيا ، وبذلك لا يكون لأحد أن يتكبر لأن الكبرياء الحقيقى لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ
أَخْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ
دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٠)

وقد سبق أن تحدثنا عن قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢١) [النحل]

فهذه مشاهد ولقطات تُبين الموقف الذي انتهى بأن أقروا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

وهذه الآيات نزلت في جماعة كانوا داخلين مكة .. وعلى أبوابها التي يأتى منها أهل البوادي ، وقد قسم الكافرون أنفسهم على مداخل مكة ليصدوا الداخلين إليها عن سماع خير أهل الإيمان بالنبي الجديد.

وكان أهل الإيمان من المسلمين يتحيتون القرصة ويخرجون على مشارف مكة بحجة رعى الغنم مثلاً ليقابلوا هؤلاء الساطنين ليخبروهم خبر النبي ﷺ وخبر نصرته ^(١) .

مما يدل على أن الذي يسأل عن شيء لا يكتفى بأول عاير يسأله ، بل يُجند السؤال ليقف على المتناقضات .. فحين سألوا الكافرين قالوا :

(١) الأساطير : جمع أسطار أو أسطورة . فهي الأحاديث لا نظام لها أو لا أصل لها ، أو هي حكايات عن الأولين كتهجها ولا أساس لها فهي أكاذيب لا تصح بزعمهم . [القاموس القديم ٢١٢/١] .

(٢) أورده القرطبي في تفسيره (٢٨٢٤/٥) ، والسيوطي في الدر المنثور (١٢٥/٥) .

سُورَةُ النحل

٧٨٨٢

[النحل]

﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٤﴾

فلم يكتفوا بذلك ، بل سألوا أهل الإيمان فكان جوابهم :

[النحل]

﴿قَالُوا خَيْرًا .. ٢٥﴾

هذا لنفهم أن الإنسان إذا صادف شيئاً له وجهتان متضادتان فلا يكتفى بوجهة واحدة ، بل يجب أن يستمع للثانية ، ثم بعد ذلك للعقل أن يختار بين البدائل .

إنن : حينما سأل الداخلون مكة أهل الكفر :

[النحل]

﴿عَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٦﴾

وحينما سألوا أهل الإيمان والتقوى :

[النحل]

﴿عَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا .. ٢٧﴾

[النحل]

ونلاحظ هنا في ﴿وَلَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ٢٨﴾

أن الحق سبحانه لم يوضح لنا مَنْ هم ، ولم يبين هُويَتهم . وهذا يدلنا على أنهم كانوا غير قادرين على المواجهة ، ويدأرون أنفسهم لأنهم ما زالوا ضعافاً لا يقدرُونَ على المواجهة .

وقد تكرر هذا الموقف - موقف السؤال إلى أن تصل إلى الوجهة الصواب - حينما عَتَبَ الحق تبارك وتعالى على نبي من أنبيائه هو سيدنا داوود - عليه السلام - في قوله تعالى :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسُفِ إِذْ تُسْرَوْنَ^(١) الْمِحْرَابَ ٢٩﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَفَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا

(١) تسور لسور : تسلفه وعلاه . [القاموس القديم ٢٢٥/٦] .

بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطُطُ^(١) وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً رُبِّي نَعْمَةً وَاحِدَةً لَقَالَ أَكْثَلُهَا وَعَزَّنِي^(٢) فِي الْخِطَابِ (٢٣) ﴿

[ص]

فماذا قال داود عليه السلام ؟

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيمِكَ إِلَيَّ نِعَاجِهِ .. (٢٤) ﴾ [ص]

وواضح في حكم داود عليه السلام تأثره بقوله (له تسع وتسعون) ولنفرض أنه لم يكن عنده شيء ، ألم يظلم أخاه باخذ نعيمه ؟! إذن : تأثر داود بدعوى الخصم ، وادخل فيه حيثية أخرى ، وهذا خطأ إجرائي في عرض القضية : لأن (تسع وتسعون) هذه لا تدخل لها في القضية .. بل هي لاستمالة القاضي وللتأثير على عواطفه ومتافذه ، وليبين أن الخصم غنى ومع ذلك فهو طماع ظالم .

وسرعان ما اكتشف داود - عليه السلام - خطاه في هذه الحكمة ، وأنها كانت فتنة واختباراً من الله :

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَاهُ ... (٢٥) ﴾ [ص]

أي : اختبرناه كي نعلمه الدرس تطبيقاً .. أيحكم بالحق ويراعي جميع نواحي القضية أم لا ؟

وانظر هنا إلى فطنة النبوة ، فسرعان ما عرف داود ما وقع فيه واعترف به ، واستغفر ربه وخز له راعياً مُنيماً .

(١) الشطط - الجور وتجاوز الحد في كل شيء ، وأشط في حكمه : جار وظلم . [القاموس القديم ٢٤٩/١]

(٢) أَكْثَلُهَا : معناه اجطئ لها اكفلها وانزل انت عنها ، قاله الزجاج . [لسان العرب - مادة : كفل] . وعزَّنِي في الخطاب : أي غلبني في الاحتجاج . [لسان العرب - مادة : عزز] .

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَنَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ (٢٠)

[النحل]

ونفهم من هذه الآية أنه على المؤمن ألا يترك الدنيا وأسبابها ،
فربما أخذها منك الكافر وتقلب عليك بها ، أو يفتنك في دينك
بسببها ، فمن يعبد الله أولى بسرّه في الوجود ، وأسرلرُ الله في
الوجود هي للمؤمنين ، ولا ينبغي لهم أن يتركوا الأخذ بأسباب الدنيا
للكافرين .

اجتهد أنت أيها المؤمن في أسباب الدنيا حتى تامنَ الفتنة من
للكافرين في دُنْيَاكَ .. ولا يَسْ ما نحن فيه الآن من حاجتنا لغيرنا ،
مما أعطاهم الفرصة ليسيّطروا على سياساتنا ومقدراتنا .

لذلك يقول سبحانه :

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ ۖ﴾ (٢١)

[النحل]

أي : يأخذون حسناتهم ، وتكون لهم اليدُ العليا بما اجتهدوا ،
وبما عملوا في دنياهم ، وبذلك ينفع الإنسان نفسه وينفع غيره ،
وكلما اتسعت دائرة النفع منك للناس كانت يدك هي العليا ، وكان
ثوابك وخيرك موصولاً بخير الآخرة .

لذلك يقول النبي ﷺ :

« ما من مسلم يفرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير
أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة »^(١) .

ومن هذه الآية أيضاً يتضح لنا جانب آخر ، هو ثمرة من ثمرات

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٢٠) ومسلم في صحيحه (١٥٥٢) كتاب

المساقاة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

سورة النمل

٧٨٨٧

الإحسان في الدنيا وهي الأمن .. فمن عاش في الدنيا مستقيماً
لم يقترف ما يعاقب عليه تجده آمناً مطمئناً ، حتى إذا داهمه شر
أو مكروه تجده آمناً لا يخاف ، لأنه لم يرتكب شيئاً يدعو للخوف .

خذ مثلاً اللص تراه دائماً متوجساً^(١) خائفاً ، تدور عينه يمينا
وشمالاً ، فإذا رأى شرطياً هلع وترقب وراح يقول في نفسه : لعله
يقصدني .. أما للمستقيم فهو آمن مطمئن .

ومن ثمرات هذا الإحسان وهذه الاستقامة في الدنيا أن يعيش
الإنسان على قدر إمكاناته ولا يرهق نفسه بما لا يقدر عليه ، وقديماً
قالوا لأحدهم : قد غلا اللحم ، فقال : أرخصوه ، قالوا : وكيف لنا
بذلك ؟ قال : ازهدوا فيه .

وتد نظم ذلك الشاعر فقال :

وَإِذَا غَلَا شَيْءٌ عَلَى ثَرَكَيْهِ فَيَكُونُ أَرْخَصَ مَا يَكُونُ إِذَا غَلَا

وَلَا تَقُلْ : النَّفْسُ تَوَافَتْ إِلَيْهِ رَاغِبَةٌ فِيهِ ، فَهِيَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا ثُرِدَ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وفي حياتنا العملية ، قد يعود الإنسان من عمله ولما ينضج
الطعام ، ولم تعد العائدة وهو جائع ، فيأكل أي شيء موجود وتنتهي
المشكلة ، ويقوم هذا محل هذا ، وتقنع النفس بما نالت .

ولكى يعيش الإنسان على قدر إمكاناته لا بد له أن يوازن بين

(١) أوجس : رجع في نفسه الخوف . والوجس : الفزع يقع في القلب أو في السمع من صوت

أو غير ذلك . والوجس : التسمع إلى الصوت الخفى . [لسان العرب - مادة : وجس] .

لَخَلَّه وَنَفَقَاتِهِ ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ عُسْرٌ فِي دَخْلِهِ ، أَوْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ مَنَاقِدُ
الرِّزْقِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ عُسْرٍ فِي مَصْرُوفِهِ ، وَلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يُضَيَّقَ عَلَى
النَّفْسِ شَهَوَاتِهَا ، وَبِذَلِكَ يَعِيشُ مَسْتَوْرًا مَيَسُورًا ، رَاضِيًا نَفْسًا ،
قَرِيرَ عَيْنٍ .

وَالْبَعْضُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ يَلْجَأُ إِلَى الْاسْتِقْرَاضِ لِلِإِنْفَاقِ عَلَى
شَهَوَاتِ نَفْسِهِ ، وَرَبِمَا اقْتَرَضَ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ شَهْرًا ، وَيَعِيشُ فِي ذَلِكَ
دَهْرًا : لَذَا مِنَ الْحِكْمَةِ إِذِنْ قِيلَ أَنْ تَسْأَلَ النَّاسَ الْقَرْضَ سَلُّ نَفْسَكَ
أَوَّلًا ، وَاطْلُبْ مِنْهَا أَنْ تُصِيرَ عَلَيْكَ ، وَأَنْ تُنْظِرَكَ^(١) إِلَى سَاعَةِ الْيُسْرِ ،
وَلَا تُكْجِكَ إِلَى مِثْلَةِ السَّوَالِ .. وَقِيلَ أَنْ تَلُومَ مَنْ مَنَعَكَ لَمْ تَفْسِدْ الَّتِي
تَأْتِي عَلَيْكَ أَوَّلًا .

وَمَا أَبْدَعَ شَاعِرُنَا الَّذِي صَاغَ هَذِهِ الْقِيَمَ فِي قَوْلِهِ :

إِذَا رُمْتَ أَنْ تَسْتَقْرِضَ الْعَالَ مُنْفَعًا عَلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ فِي زَمَنِ الْعُسْرِ
تَسَلُّ نَفْسَكَ الْإِنْفَاقَ مِنْ كَنْزٍ صَبْرًا عَلَيْكَ وَإِنْظَارًا إِلَى سَاعَةِ الْيُسْرِ
فَلَنْ فَعَلْتَ كَذَمَ الْغَنَى ، وَإِنْ آيَتْ فَكُلْ مَنُوعَ بَعْلِهَا وَكَسِعُ الْقُدْرِ

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ .. (٧٩) ﴾

[النمل]

وَالْخَيْرُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ اللَّهِ ، وَالتَّعْمِيمُ فِيهَا عَلَى قَدْرِ الْمُنْعَمِ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى ، نَوْنُ تَعَبٍ وَلَا كَدٌّ وَلَا عَمَلٌ .

(١) الْإِنْظَارُ : الْإِسْهَالُ وَالتَّأْخِيرُ . وَاسْتَنْظَرَهُ : طَلَبَ مِنْهُ التَّنْظِيرَ وَاسْتَمْتَهَلَهُ . | لِسَانُ الْعَرَبِ -
حَادَّةٌ : نَظَرٌ] .

ومطوم أن كلمة : ﴿ قَالُوا خَيْرًا .. ﴾ (٣٠)

[النحل]

التي فسرها الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. ﴾ (٣١)

[النحل]

تقابلها كلمة « شر » ، هذا الشر هو ما جاء في قول الكافرين :

﴿عَٰذَا أَنزَلْ رَّبُّكُمْ قَالُوا أَصَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣٢)

[النحل]

فهؤلاء قالوا خيراً ، وأولئك قالوا شراً .

ولكن إذا قيل : ذلك خير من ذلك ، فقد توفر الخير في الاثنين ،

إلا أن أحدهما زاد في الخيرية عن الآخر ، وهذا معنى قوله ﷻ :

« المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي

كل خير »^(١) .

لذلك لما قال :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. ﴾ (٣١)

[النحل]

قال : ﴿وَلَنَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ .. ﴾ (٣٢)

[النحل]

أي : خير من حسنة الدنيا ، فحسنة الدنيا خير ، وأخير منها

حسنة الآخرة .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٣)

[النحل]

أي : دار الآخرة .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤) كتاب القدر - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ثم أراد الحق تبارك وتعالى أن يعطينا صورة موجزة عن دار
العتلين كأنها برقية ، فقال سبحانه :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا
مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣١)

والجنات : تعنى البساتين التى بها الأشجار والأزهار والثمار
والخضرة ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب
بشر .. ليس هذا ونقط .. هذه الجنة العمومية التى يراها كل من
يدخلها .. بل هناك لكل واحد قصر خاص به ، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَبَدَّخَلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ
عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٢٦)

[الصف]

إذن : هنا قدر مشترك للجميع :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (٢٦)

[النحل]

ومعنى قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ .. ﴾ (٣١)

[النحل]

أى : جنات إقامة دائمة : لأن فيها كل ما يحتاجه الإنسان ، فلا
حاجة له إلى غيرها .. هب أنك دخلت أعظم حدائق وبساتين العالم -
هايد بارك مثلاً - فقصارى الأمر أن تتنزه به بعض الوقت ، ثم
يعتريك التعب ويصيبك الملل والإرهاق فتطلب الراحة من هذه
النزهة - أما الجنة فهى جنة عدن ، تحب أن تقيم فيها إقامة دائمة .

ويصف الحق سبحانه هذه الجنات فيقول :

[النحل]

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (٣٨)

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

[التوبة]

﴿ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (١٠٠)

ومعنى « تجري تحتها » أى : أنها تجري تحتها ، وربما تأتى من مكان آخر .. وقد يقول هنا قائل : يمكن أن يمنع عنك جريان هذه الأنهار ؛ لذلك جاءت الآية :

[النحل]

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (٣٨)

أى : ذاتية فى الجنة لا يمنعها عنك مانع .

ثم يقول تعالى :

[النحل]

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. ﴾ (٣١)

والمشيئة هنا ليست بإرادة الدنيا ومشيتها ، وإنما مشيئة بالمزاج الخصب الذى يتناسب مع الآخرة ونعيمها .. فمثلاً : إذا دخلت على إنسان رقيق الحال فلك مشيئة على قدر حاله ، وإذا دخلت على أحد العظماء أو الأثرياء كانت لك مشيئة أعلى .. وهكذا .

إن : المشيئات النفسية تختلف باختلاف المشاء منه ، فإذا كان المشاء منه هو الله الذى لا يُعجزه شيء تكون مشيئتك مُطلقة ، فالمشيئة فى الآية ليست كمشيئة الدنيا ؛ لأن مشيئة الدنيا تتحدد ببيئة الدنيا .. أما مشيئة الآخرة فهى المشيئة المتفتحة المتصاعدة المرتقية كما تترقى المشيئات عند البشر فى البشر حسب مراتبهم ومراكزهم .

ويروى أنه لما أسرت بنت أحد ملوك فارس عند رجل ، وأرادوا

شراءها منه وعرضوا عليه ما يريد ، فقال : أريد فيها ألف دينار ، فأعطوه الألف دينار وأخذوها منه .. فقال له أحدهم : إنها أمانة الملك ، ولو كنت طلبت منه كذا وكذا لم يبخل عليك فقال : والله لو علمت أن وراء الألف عدداً لمأليته .. فقد طلب قماري ما وصل إليه علمه .

لذلك لما أراد النبي ﷺ أن يشرح لنا هذا النص القرآني :

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ..﴾ (٧١) [النحل]

وكذلك قوله تعالى :

﴿وَلِيَهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٧١) [الزخرف]

قال : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(١) .

إذن : تحديد الإطار للآية بقدر ما هم فيه عند ربهم .

﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣١) [النحل]

أي : هكذا الجزاء الذي يستحقونه بما قدموا في الدنيا ، وبما حرموا منه أنفسهم من مُشع حرام .. وقد جاء الآن وقتُ الجزاء ، وهو جزاء أطول وأدوم : لذلك قال الحق تبارك وتعالى في آية أخرى :

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ^(٢) فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (٧١) [الحاقة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد في مسنده (١٦٦/٢) وأبو نعيم في الحلية

(٢٦٢/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « قال الله عز وجل .

اعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

(٢) أسلف : قدم أو فعل من قبل . قال تعالى : ﴿هَذَا نَبَأُ كُلِّ نَفْسٍ عَمَّا أَسْلَفَتْ ..﴾ (٣١) [يونس]

أي : ما قدمت وما عملت في الزمن الماضي في الدنيا . [القاموس القويم ٢٢٢/١] .